الفصل الثامن والعشرون

العرب فى أسبانيا

بنو أميـــة

٣٦٦ — ٤٢٨ هـ ، ٩٧٦ — ١٠٣٧ م

هشام الثانى — المهدى — سليمان — عبد الرحمن
الرابع — محمد الثانى — هشام الثالث

تولية هشام الثانى — الحاجب المنصور — مؤامراته — قبضه
على السلطة — انتصاره على قبائل النصارى — وفاته — خلافة
ابنه المظفر — حكومته — وفاة المظفر — الحاجب عبدالرحمن —
المهدى — تنازل هشام الثانى عن العرش — الفتك بالمهدى —
ثورة قرطبة

ترك « الحـكم » العرش لابنه الوحيد هشام الذى لم يكن قد جاوز الحادية عشرة بعد ، وكان قد تذرع بجميع الوسائل فى حياته لـكى يضمن لابنه الخلافة ، وقبل أن تدركه المنية ببضعة أشهر عقد مؤتمراً حضره جميع الأشراف ورجال الدولة الذين حلفوا يمين الطاعة لهشام ، كما وقعوا على الوصية التى أسند فيها الخليفة ولاية العهد إلى ابنه المحبوب . ولما كان « الحـكم » على فراش الموت عهد بالعناية به إلى الحاجب المصحفى و إلى وزيره محمد بن أبى عامر ، وبذلك اعتقد أن ابنه الطفل سينجح فى حكمه تحت وصاية أمه الملـكة صبح — وكانت حازمة نافذة العزم — بمساعدة وتعضيد هذين الخادمين الوفيين ، فبويع هشام بمقتضى وصاية أبيه بالخلافة ولقب « بالمؤيد بالله » ؛ غير أن الخليفة المتوفى كان قد أساء التقدير ، ووثق كثيراً بمحمد بن أبى عامر الطموح النفس ، إذ لم ينقض طويل وقت حتى عزل الحاجب المصحفى والأشراف الذين كانوا يعترضون على توليته ، كما قتل

بعض الولاة والأعيان ؛ « ولما أفنى جميع من يصلح للرئاسة »[١] قبض على السلطة وحجب الخليفة الفتى فى قصره ، ومنع رجال الدولة من الاتصال به إلا فى الأعياد أو الحفلات الرسمية حيث كانوا يؤدون طاعتهم ويخرجون على الفور . وبعد أن استولى على الوزارة وتلقب «بالحاجب المنصور» أمر ببناء مدينته المعروفة بالزهراء ، « كما نقش اسمه على العملة ، وصدرت الأوامر والمراسيم بختمه ، وقرن اسمه باسم الخليفة فى خطبة الجمعة » ؛ وبعد أن تخلص من المنافسين والمرشحين للرئاسة وجه التفاته للجيش فأعاد تنظيمه ، وأقصى العنصر العربى وأحل محله جنود البربر المرتزقة الذين كان يستطيع الاعتماد عليهم ، « كما أقصى زعماء العرب عن مناصبهم[٢] » ، ويقول ابن خلدون : « إن المسلمين بقيادته غزوا اثنتين وخمسين غزوة لم ينكسر له فيها راية ولا فل له جيش » .

وكان الجلالقة والبشكنس على أثر وفاة الحكم قد شقوا عصا الطاعة على العرب واستأنفوا حروبهم ، فبدأ المنصور (كما يجب أن نسميه الآن) حروبه بغزو ليون وناقارا وأخضعهما وجعلهما ولايتين تابعتين له ، ثم سار بجيشه إلى كتالونيا وخرب برشلونة وطرد منها الأمراء الفرنسيين ؛ وهكذا امتدت حدود الإمبراطورية للمرة الثانية إلى ما وراء جبال البرنيه ، كذلك نال نجاحاً كبيراً فى المغرب الأقصى ، فأخضع قواده قسما كبيراً من أفريقيا الغربية . وفى سنة ٩٩١م فكر فى مشروعه الجرىء بجعل منصب الحجابة وراثياً فى عائلته ، وكان يود لو يستطيع أن يزيح ابن حبيبته من العرش وينادى بنفسه ملكا حقيقياً (Dejure) على البلاد ، ولكنه كان يخشى الشعب الذى كان يحرص كل الحرص على شرعية وراثة العرش ؛ ولعل الأشراف كانوا يرون فى تغيير الأسرة المالكة فائدة لهم ، غير أن الشعب وبالأخص أهل أسبانيا الأصليين كانوا يرون

---

(١) ابن خلدون .

(٢) ابن خلدون .

غير ذلك ، « إذ كان حب العائلة المالكة قسما من كيانهم لا يقل عن عاطفتهم الدينية ، ومع أن البلاد قد ازدهرت فى عهد المنصور ازدهاراً لم يسبق له مثيل قط ، إلا أن الشعب مع ذلك كان يكرهه لأنه كان يخفى عنهم الخليفة و يستأثر بالحكم دونه » ، ولما كان عالماً بهذا الشعور وليس له أمل فى تغيير الأحوال إلا بمضى الزمن ، فقد اكتفى بإعلان ابنه عبد الملك خلفاً له فى الوزارة بتصديق الخليفة ولقبه فى سنة ٩٩٦ م «بالسيد» والملك الكريم .

وفاة الحاجب المنصور ١٠٠٢ م

توفى الحاجب المنصور سنة ١٠٠٢ م ودفن[1] بمدينة سالم ، ولم يسبق أن هاب مسيحيو الشمال أمراء الأندلس مثلما هابوا الحاجب المنصور ؛ وكان شهماً شجاعا قوى النفس ذا عقل وشجاعة ، فاستمال الجند وأحسن إليهم ونظم الجيش على أحسن نظام وترتيب ، « وبذلك أكسب أسبانيا قوة لم تعرفها من قبل حتى فى عهد عبد الرحمن الثالث[2] » ، ولم يكن ذلك كل أعماله التى قام بها نحو الشعب بل كان فوق ذلك يعطف على أحرار الفكر والفلاسفة ، ولم يتردد قط فى حمايتهم دون أن يجرح أوهام المتعصبين ، فازدهرت فى حكمه الزراعة والصناعة ، وزهت العلوم والآداب وفاضت خزائن قرطبة بالأموال ، وكانت أيامه أيام فخار وظفر وسعادة ورخاء ، و بالرغم من أنه استخدم فى نيل سلطته أساليب غير شريفة فمن الواجب أن نعترف بأنه استخدمها فى سبيل الخير العام .

الحاجب عبدالملك المظفر

ولما توفى المنصور خلفه ابنه عبد الملك فى منصب الحجابة وتلقب «بالمظفر» وجرى على سنن أبيه فى سياسة الدولة ، ونال عدة انتصارات على القبائل المسيحية ، وكانت ولايته عهد سلام ورغد أو « أعيادا ومواسم » كما يصفها مؤرخو العرب

---

(١) وكتب على قبره هذان البيتان :

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه
تا لله لا يأتى الزمان بمثله أبداً ولا يحمى الثغور سواه

(المعرب)

(٢) دوزى .

ومع ذلك كان بنو عامر غير محبوبين من الشعب ؛ ولو أنهم اكتفوا بحكم البلاد باسم الخليفة لظلوا فى الوزارة مدة طويلة من الزمن ، غير أن طموحهم الوثاب لم يعرف حدوداً يقف عندها ، فلم يرموا إلى الاستيلاء على السلطة الحقيقية تحت ظل العرش فحسب ، ولكنهم طمحوا أيضاً إلى الاستيلاء على العرش نفسه ، فاكتسبوا بذلك عداوة أمراء البيت المالك وجميع الأمويين ، وأقصوا الفقهاء وباعدوا الشعب ، وفى نفس الوقت أدى التغيير الذى طرأ على شبه الجزيرة منذ تولية الناصر إلى تحبيذ نشوب الثورة الداخلية ، وذلك أن المجتمع العربى « بفضائله وأخطائه » أخذ فى الاختفاء ؛ وتم توحيد الشعب الذى كان غاية الناصر والحاجب الأكبر ، غير أن هذا التوحيد تم على حساب العناصر الأرستقراطية القديمة التى لحق بها الخراب والاضمحلال ، فأخذت تتوارى بسرعة ، وامحت من ذاكرة الناس بالتدريج الأسماء التاريخية المشهورة . ومع أن كبار الدولة الذين كانوا مرتبطين بالبيت الأموى بالولاء قاوموا تلك الهزة العنيفة ، وحافظوا على ثروتهم ونفوذهم ، إلا أن قواد البربر والصقالبة الذين أثروا فى عهد الحاجب المنصور كانوا أقوى الناس شكيمة على الإطلاق . وقد خلق التطور المادى طبقة اجتماعية جديدة وهى الطبقة الوسطى المثرية والتجار والطبقة العاملة ، كل هؤلاء شرعوا يلعبون دورا خطيرا فى اقتصاديات البلاد ، غير أن هذه الثروة خلقت صعوبات جديدة بدأت بالكفاح بين الطبقات ، ويستطيع المرء أن يتصور فى مرآة تاريخ تلك العصور كل المتاعب التى تصادف سياسيي العصر الحاضر ، وهى النفور المتبادل بين رجال الجيش والمدنية ، والبغضاء التى يحملها المستخدمون إلى أصحاب الأعمال ، وحسد العامة للطبقة العليا ، ففى عاصمة الأندلس كانت الأحوال الاجتماعية قد بلغت حدا يخشى منه إذا حصلت أقل فتنة صغيرة أن تؤدى إلى كفاح مخيف بين الأغنياء والفقراء ، « إذ كانت قرطبة وقتئذ عبارة عن مصنع هائل يزخر بألوف العمال المتهيئين عند أقل سانحة

أن يهبوا جميعاً لإعلان الثورة التى تجلب لهم الغنائم والكنوز ، غير أن الطبقات الغنية أدكت الخطر المحدق بهم لو تمادوا فى بغض بنى عامر »[١] .

وفاة المظفر

و بوفاة المظفر فى زهرة شبابه[٢] حلت الكارثة التى كان يخشاها البعض ويتمنى وقوعها البعض الآخر ، وهكذا سقط بنو عامر من شاهق عزهم ، ولكن سقوطهم كان كسقوط شمشون الجبار الذى قوض بسقوطه دعائم الإمبراطورية فخلفه أخوه عبد الرحمن المسمى سانكول[٣] ، وكان يكرهه الشعب لفسقه ومجونه ، ولكنه كان برغم ذلك طاغية يستأثر بالسلطة ، فاستقر رأيه على المناداة بنفسه خليفة ، فأجبر هشام الثانى أن يوليه عهده ، وكان لاغتصابه ولاية العهد على هذا النحو أثر عظيم فى قرطبة . فلم يكد سانكول يغادر العاصمة لقمع إحدى الفتن فى الشمال ، حتى وثب أمير من بنى أمية يدعى هشام على قرطبة ، ثم نفذ الثوار إلى قصر بنى عامر (الزهراء) ونهبوه ثم أشعلوا فيه النار ، وتنازل هشام إلى محمد بالخلافة ، ولقب « بالمهدى » ، ثم عزل سانكول من ولاية العهد والوزارة ، وسرى الحماس من العاصمة إلى الولايات ، وأخذ الناس يتطوعون فى جيش المهدى ، كما حصل فى الثورة الفرنسية ، وانضم تحت لوائه أفراد الطبقة الوسطى أو رجال الشعب من أطباء وقصابين وسروجية ، وانفض الناس من حول سانكول الذى أسر وقتل ؛ غير أن الخليفة الجديد لم يبق فى الحكم طويلا إذ لم يلبث أن جلب سخط جميع الأحزاب بسوء تصرفه ، فتخلى عنه البربر وولى مكانه خليفة آخر كان هو أيضاً من الأسرة الأموية واسمه سليمان ،

---

(١) دوزى .

(٢) ذكر ابن الأثير (ج ٨ ص ٢٢٥) عن سبب وفاته أن أخاه عبد الرحمن سمه فى تفاحة قطعها بسكين كان قد سم أحد جانبيها فتناول أخوه مما يلى الجانب المسموم وأخذ هو ما يلى الجانب الصحيح فأكله بحضرته فاطمأن المظفر وأكل ما بيده منها فمات .

(المعرب)

(٣) ويسميه العرب سانجول ، ويقول دوزى إنه كان يسمى سانكو الصغير أو سانكول لأن أمه كانت ابنة سانكو ملك نافارا أو كونت قشتالة .

وأصبحت قرطبة الآن مسرحا للاضطرابات المروعة ، واستعمل فيها الطرفان أروع ضروب السفك . ولما هزم المهدى أخرج هشاما الثانى ووضعه على كرسى الخلافة ، واستنصر سليمان عندئذ مسيحيي قسطيلة وليون ، بينما استنجد المهدى بالكتالونيين ، وهكذا فى خلال بضعة أشهر منذ وفاة المظفر أخذ المسلمون يستنجدون بالجلالقة والقبائل الأخرى بعد أن كانوا يملون إرادتهم عليهم ، وقد اشترط هؤلاء فى مساعدتهم أن يردوا لهم كافة البلاد التى كان الناصر والحاجب الأكبر قد استوليا عليها ، فاسترد المسيحيون على هذا النحو زهاء مائتى مدينة وقلعة ، ووقعت قرطبة فريسة بين رجال سليمان والمهدى اللذين أخذا يستوليان عليها بالمناوبة ويعملان فيها معاول النهب والتخريب ؛ وفى تلك الأثناء أصيبت مدينة الزهراء التى شيدها عبد الرحمن الثالث بأخطار فادحة ؛ وأخيرا قتل المهدى ، فألقى سليمان القبض على « هشام » المسكين ؛ ولم يعرف ما حل به الدهر ، إذ يقال فى رواية إنه قتل ، بينما يقال فى رواية أخرى إنه غادر إلى مكة ، أما المغتصب الذى لقب « بالمستعين بالله » فلم يتمتع بثمرة انتصاره طويلا ، إذ نجم عن ثورة أخرى انهيار سيادته وقتله . وعندئذ لم يلبث أحد أفراد الأسرة الإدريسية أن استولى على الحكم ، ولكنه قتل بعد مدة وجيزة ، وخلفه أخوه القاسم ، وكانت إدارته مشربة بروح العدل والإنصاف ، ولكن البربر تخلوا عنه بعد مدة غير طويلة ، ودارت بينه وبين ابن أخيه معارك رائعة أسفرت عن إقصائه من قرطبة ، وعندئذ نصب القرطبيون أحد أمراء البيت الأموى فى كرسى الخلافة ، غير أنه مع ذلك لم يبق طويلا فى الحكم ، فأعقبه أمويان آخران ختمت بهم الأسرة الأموية ، وعلى هذا أذعنت قرطبة إلى يحيى بن على ابن حمود ردحا من الزمن ، وبعد اغتياله سنة ١٠٣٥ قامت جمهورية فى المدينة حتى قوض أركانها ملك أشبيلية بعد أربعين سنة .